المزارع واصناف الاغراس على جانبيها الّا انَّ الشمس اشتدَّت علينا بعد حين وقاسينا من التَّعب والكلال ما لا يعلمهُ الّا الله حتى ادركنا المنزلة ونحن على رَمَق

فلمَّا بردنا غليلنا واسترحنا من عنائنا المعنّي زرنا البلدة واسواقها وآثارها وقد لقينا انَّها تشبهُ في بنائها وهندستها ومساجدها الحسنة ومنائرها العالية مدينة دمياط وان كان نهرها المعروف بالبحر الصغير دون ترعة دمياط اتساعاً الّا انَّها تغلب دمياط بغضارتها وبهجة حدائقها وبُسوق اشجارها

وممَّا تذكَّرنا من اخبارها ما جرى للجنرال بونبرت فيها لمَّا حاول فتحها فردَّهُ حسَن طوبار شيخُها البطل ولم يزل يدافع عن وطنهِ تارةً لهُ وتارةً عليهِ حتى قُبض عليهِ وأُسر في القاهرة ثم اطلق الجنرال كلابر سراحهُ فعاد الى المنزلة ومات فيها في حزيران من سنة ١٨٠٠

وكان وصولنا في مساء ذلك النهار الى بوت سعيد شاكرين المولى على ما رأيناهُ في هذه الرحلة من مآثر الاقدمين. لكنَّنا اسفنا على انَّ الوقت لم يسمح لنا بزيارة جزيرتي طونة وتنّيس فاجّلنا زيارتهما لمرَّة اخرى

ذكر الابطال في حرب الترنسفال

للشاب الاديب اسكندر افندي طحيني

كنتُ عند ورودي الى جنوبي افريقية ولعاً بزيارة الاماكن التي جرت فيها المواقع بين الجنود الانكليزيَّة والبوير. وكنتُ اتردَّد على الجنود الانكليز واعجب بما ارى على صدورهم من القدد المتعدّدة الالوان دلالةً على ثباتهم في تلك الحرب العوان

وقصدت مرةً الذهاب الى كولسبرغ لزيارة المدينة وموقع القتال الذي انتشب ثمَّت بين الأمّتين فاتفق سفري مع احد الضباط الذي حضر المعركة المذكورة بصفة ضابط في المدفعيَّة فبعد ان ركبنا القطار واخذنا نتجاذب اطراف الاحاديث سألتهُ عن رأيه في القائد « دي وت » فقال: ان هذا القائد البويري يضارع اسكندر الكبير ونابليون وانيبال بدرايتهِ وحذقه ومهارتهِ في الامور الحربية ثمَّ اخذ يقصّ عليَّ هذا الخبر فقال:

بعد فتح جوهنسبور ودخول جنودنا اليها مظفَّرة أُمرتُ بالذهاب اليها فدخلتها مع فرقتي واذ هي في اضطراب عظيم وقلق ليس لهُ مثيل والجنود من مدفعيين ومشاة ورماة واكوسيين وايرلنديين ومستعمرين يتجولون في شوارعها. وبعد ان استرحت من مشقَّة الطريق دعاني احد اصحابي الى حانة لشرب كأس من الويسكي فاجبتُ دعوتهُ. وقد وجدنا في الحانة نحو عشرين ضابطاً كلهم بالبزّات الرسمية وعلى الباب كثير من الخيل الملجمة يحرسها الغلمان. فما كدنا ندخل الّا وتقدَّم الينا احد الضباط وكان ذا لحية خفيفة فكلمنا بانكليزيَّة فصيحة قائلًا: « يقولون ان دي وت بالمدينة » فاخذ صاحبي يقهقه ويقول انني اول البارحة بعد معركة يسيرة تركت دي وت على مسافة الف ميل من هنا. فاجابهُ الضابط المذكور: « لقد اصبت لأنني انا كذلك اعهد انهُ في الجبال الغربية »

ثم سألنا ان نشرب قليلًا من الويسكي وامر الغلام ان يقدّم اقداحاً لبقية الضباط وبعد ما شربوا اخذوا يتجاذبون الحديث وطفق ذلك الضابط المجهول يتكلم عن معسكر دي وت ويستقصي كذلك القول عن العسكر الانكليزي وبعد ان اكمل رشف قدحهِ قال لصاحبي: « اذًا تؤكد ان دي وت ما قدر يدخل المدينة » فاجابهُ صاحبي على الفور: نعم اني على يقين من انهُ لم يدخلها. ثم انهُ ناول صاحب الحانة قطعة من الذهب عليها صورة الملكة وبعد ان سلم علينا السلام العسكري امتطى صهوة جواد اسود من اطايب الخيل واخذ ينهب بهِ الارض نهباً فخلناه ذاهباً الى فرقتهِ فتركناه وشأنه والتهينا عنهُ بالحديث

ولكن لم يمضِ علينا بضع دقائق حتى رأينا القبطان . . . قادماً مذعوراً ووجهه احمر كالدم والعرق ينضح من جبينه فدخل الحانة واخذ يتفقَّد كل جوانبها فضحك الضباط من هيئتهِ وقال لهُ احدهم: « كأني بك تطلب دي وت بيننا »

فاجابهُ: اجل او ما رأيتم ضابطاً اسمر اللون لابساً بزّة مُلازم وراكباً جواداً اسود ضخماً

قالوا: نعم رأيناه وقد كان هنا من مدة وجيزة

— واين ذهب ؟

— مرَّ من هذا الشارع

— هذا هو دي وت بعينهِ

فحينئذٍ اخذ منَّا الاضطراب مأخذه وقام الحضور في الحانة المذكورة وخرج الكل الى خارج علَّهم يجدونه لكنَّنا طلبنا اثرًا بعد عين وعضضنا الانامل ندماً على فراره

قال الراوي : فخرجتُ من هناك وانا افكِّر في ذلك القائد البطل وقلت : هكذا تكون محبَّة الوطن وشهامة الفرسان والَّا فلا

ولنعد الآن الى سياق الحديث فلمَّا وصلنا كولسبرغ غادرنا القطار ومشينا قليلًا حتى اذا وصلنا الى محل الواقعة قال لي رفيقي : هذه ساحة الوغى فشخصتُ ببصري نحو المكان فاذا هو وهاد خضرة وسهل فسيح ووادٍ بعيد فيه بعض اشجار وكنت ارى غابات مقطوعة او محروقة وبيرتاً مهدومة وبنادق وسلاحاً مكسورة كما كنت اطالع في التواريخ عن مواقع القتال

وكانت مخيِّلتي تصوِّر لي الواقعة كاني احضرها . وبقيتُ مليًّا هذه التفكرات تجول في خاطري حتى جذبني رفيقي وقال : « هناك كنا واقفين » . وارانى جُبَيْلًا مكللًا ببعض اكياس مملوَّة رملًا ثمَّ اردف : « نعم كنَّا هنا وراء هذه المتاريس وكانت البوير قرب الجهة الشمالية على هذا الجبل الذي توهم العين انهُ على بعد خمسمائة متر وهو في الحقيقة على بعد كيلومترين وكنَّا مختبئين وراء هذا الجبل نطلق المدافع فكانت الطلقات تذهب كلها خطأ لأننا كنَّا لا نحسن قياس المسافة وما درينا بذلك الَّا بعد خامس طلقة فصرنا نطلق المدافع على بعد الف وخمسمائة متر بدل الخمسمائة وذلك لعمري فرق يُذكر »

فسألتهُ حينئذٍ : وهل كان يخطئ البوير كذلك . قال : « كلَّا لأنهم معتادون طرق بلادهم . وبينما كنَّا نبذل الجهد لكي نحكم طلقاتنا كان رصاصهم يضرب الحجارة التي كنَّا وراءها وبعضها كانت تخرقهُ قوة الرصاص فتُطيرهُ شعاعاً علينا وكان احد الجاويشية بقربي وراء صخر فيهِ شقّ متطاول فدخلت رصاصة من الشقّ اليهِ فقتلتهُ لساعتهِ ورفع آخر رأسهُ من فوق المتاريس فوقع للحال مضرَّجاً بدمهِ واماً انا فان رصاصة اصابتني باعلى قبعتي فاطارتها » . وكان الضابط يحكي كل هذا برزانةٍ كأنهُ يروي لي سِفْرًا من أساطير الاوَّلين

— وهل قُتل منكم خلق كثير ؟

— اكثر القتلى بين المدفعين فانَّهم كانوا اذا اطلقوا طلقة واحدة جاوبهم مطر من الرصاص يسقط على المحل الذي خرجت منهُ الطلقة . وبعد ان دفعنا البوير

امامنا من جبل الى جبل رأينا ان طلقاتهم تخفُّ قليلًا قليلًا فما وصلنا الى محلهم حتى رأيناه بلقعاً ليس فيهِ غير بعض اسلحة محطمة ألقاها البوير عنهم قبل فرارهم ولم نرَ لهم اثرًا في الجبال الموازية لنا ولكنهم خسروا كثيرين منهم. ألا ترى هذه الوهدة المنطى اكثرها بالحجارة الضخمة والتراب ؟ هناك دفنوا قتلاهم

— هلمَّ معي فاني ارغب في زيارة القبور

— نعم ولكن تعال اولًا وانظر قبور جنودنا

فذهبنا الى محل مُحاط باسلاك من الحديد وفي الوسط ثلاثة قبور كبار والى جانبها قبور صغار متلاصقة مصفوفة كالعسكر اوان الاستعراض

قال : « فالثلاثة القبور الكبار هي قبور الجنود فانهم كانوا يجمعون جثثهم في حفرةٍ واحدة ويهيلون عليهم التراب واماَّ الرموس الصغار فهي رموس الضباط »

فجثوت حينئذٍ راكعًا وصليت لراحة تلك الانفس صلاة وجيزة واماَّ رفيقي فانهُ وقف وقفة الجندي بلا سلاح ورفع قبعتهُ واطرق في الارض

ثم بدون لفظ كلمة ذهبنا الى قبور البوير فاستدللنا من قلَّة هندستها انَّها حُفرت على عجل. وهناك كذلك رفع الضابط الانكليزي قبعتهُ وقدمتُ لله صلاة حارَّة لاجل اولئك الابطال الراقدين هناك وقفلنا راجعين الى حيث اتينا

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعيّ (تابع)

الفصل الثامن

خيبة الآمال

كانت الشمس كشفت جلبابها اذ دخلت الأمة العجوز دوروتيا مخدع سيّدتها وهي تطأ الارض همساً ثم عكمت السجوف وفتحت النوافذ فارسلت الغزالة بانوارهـا واضاءت المكان فسطعت آنية الحجرة وشمعٌ فولاذ دمشق وبلّور صيداء وآبنوس الهند

وكانت يهوديت غائصةً في بحر النوم في سرير بديع النقش تستر وجهها كلّةٌ